محاضرة رقم ١٠	
الكلية	التربية للعلوم الانسانية
القسم	التاريخ
المادة باللغة العربية	فلسفة التاريخ
المادة باللغة الانجليزية	philosophy of history
المرحلة	الثالثة
السنة الدراسية	٢٠٢٣ / ٢٠٢٤
الفصل الدراسي	الأول
المحاضر	د. أحمد محمود حمود
العنوان باللغة العربية	المثالـــية الهيجلية
العنوان باللغة الانجليزية	Hegel is idealism,
المصادر والمراجع	فلسفة التاريخ – غوستاف لوبون
	ابن خلدون – المقدمة
	فلسفة التاريخ في الفكر الاسلامي – عبد الرحمن بدوي

المحاضرة : العاشرة

أ- مقدمة في المثالية (الذاتية) و (الموضوعية)

تعد المثالية أحد المذاهب الرئيسة في الفلسفة ، الذي يعطي الأولوية في الوجود للوعي أو الروح أو الفكرة، ويعد «المادة» أو «الطبيعة» نتاجاً لها . ومع هذا تفرعت عن المثالية مدرستان رئيستان هما : (المثالية الذاتية) التي اتخذت من احساسات وتصورات ووعي الأنسان أصلا لكل ما هو موجود . وقد مثل هذا الإتجاه الفيلسوف الانكليزي جورج باركلى (١٦٨٥ – ١٧٥٣) الذي حاول البرهنة على أن العالم المادي ليس له وجود خارج حدود احساسات الإنسان أما (المثالية الموضوعية) فقد عدت الوعي الموضوعي أو «الروح العالمي» أصلا للكون وطبيعة التأريخ.

وفي الواقع، تمتد جذور المثالية عميقاً في قلب الحياة الاجتماعية . كما تجد لها أصولا في عملية المعرفة نفسها. ويعد الفيلسوف اليوناني (أفلاطون) من دعاة المثالية الموضوعية حيث عارض العالم المادي بعالم المثُل جاعلا الأشياء ظلا للمُثل الأزلية ونتاجاً لها .

ومن دعاة الفلسفة المثالية الموضوعية الفيلسوف الألماني عمانوئيل كانت (١٧٢٤ – ١٨٠٤)

الذي جمع بين التجريبية والبرهان العقلى وبين الميتافيزيقيا لاسيما في مجال التعمق في ميدان الأخلاق والأماني الأنسانية. وفي الميتافيزيقيا حاول كانت الفصل بين المعرفة الحسية والمعرفة العقلية . كما ميز بين العقل والذهن . فالعقل لديه يمثل ملكة استنباط الخاص من العام . أما الذهن فهو ملكة تلقائية المعرفة وهو ملكة التفكير . وإلى جانب ذلك حاول كانت التمييز بين الممكن والواقعي والضروري في نظريته المعرفية . أضافة إلى تفنيده للمثالية الاحتمالية ، التي جاء بها رينيهه ديكارت (١٥٩٦ – ١٦٥٠) والمثالية الدوغماتيقية التي أخذ بها (باركلى). وهي تعني الاعتقاد الجازم واليقين المطلق دون الاستناد إلى براهين يقينية، كما قام كانت بتحليل التصورات أي المعاني العقلية المجردة وعزا إلى العقل الدور الكامل في المعرفة الصحيحة ورفض العاطفة وما يصدر عنها من أدراكات . الا أنه لم يكن يؤمن بتناقض التفكير أو التفكير الديالكتيكي ، كما فعل الفيلسوف جورج هيجل .

ب – هيجل والمثالية الجدلية التأريخية

يعد جورج فردريك هيجل (١٧٧٠ – ١٨٣١) من أبرز الفلاسفة والمفكرين الألمان الذين كان لهم أعظم الأثر على الحركة الفكرية والفلسفية خلال القرن التاسع عشر . كان هيجل مفكراً وفيلسوفاً متحلياً بنظرة موسوعية متقدمة . فقد بحث في الميتافيزيقيا والمنطق والقانون والدين والحق والجمال وعلم الاجتماع والعلوم الطبيعية والرياضيات واللغات والتأريخ . وقد ارتبطت فكرة تفسير التأريخ لديه بشكل أو بأخر بالنسق العام لفلسفته ذاتها القائمة على الميتافيزيقيا والمنطق ، ومن هنا انطلقت فلسفته بشكل واضح من المثالية الموضوعية ، ثم أتخذت من الفكرة المطلقة خالقاً للطبيعة .

أستندت فلسفة هيجل المرتبطة بالتاريخ إلى الفكرة المثالية الجدلية ، القائمة على الميتافيزيقيا والحتمية المنطقية . والفكرة بنظره لها بعدان هما: الوجود الخالص أو الروح الكلي المطلق لهذا العالم أو الكون وهو وجود ذاتي قائم بنفسه مفارق وليس له صفة مادية . (والوجود الخارجي الظاهري) أي الوجود القائم في عالم الحس ممثلا بالطبيعة. اما فلسفته في الروح ، فلها أشكال ثلاثة : (الروح الذاتي) الفاعل في الوجود والذي يخلع على الوجود صورته ، ويتضمن طرق التفكير واتجاهات العقل والوجدان و (الروح الموضوعي) أي الوجود الممثل بعالم البشر افراداً أم جماعات ، ويتضمن كل ما يتصل بقواعد المجتمع والنظم الاجتماعية . و (الروح المطلق) الذي يمثل محصلة اتحاد الذاتي والموضوعي ، ومن خصائصه أنه يعمل عملاً خاصاً به ومستقلاً عنهما كما يؤثر كل من الروح الموضوعي والروح الذاتي على نحو متبادل فلا يبقى أحدهما دون الآخر. وبرأي هيجل أن (الروح المطلق) يسيطر على العالم وينفذ حكم التاريخ الذي يتبدى في العالم التأريخي من خلاله ويشرف على تنظيمه .

أن الفكر والوجود يتحدان في فلسفة هيجل اذ ليس من موضوع حقيقي في اعتقاده إلا (الكل المطلق) وليس الكل هنا مجموع أجزاء وإنما (وحدة مغلقة) ، لا تعتمد على شيء خارجها ، فهي كل شيء على الإطلاق.، أي الذات والموضوع معاً . كما أن التاريخ بنظره ليس حاصل حوادث جزئية متفرقة مبعثرة ، وان بدت احداثه فوضى عابثة وغير هادفة . بل خاضعة لحكم «الروح» التي تسري في هذا الوجود المطلق لتوجه الكون وتجعل مسار التاريخ يتسم بالمعقولية , والروح هذه تعبر عن وعيها خلال التاريخ ومن ثم فكل شيء يتم وفق مخطط مرسوم وحتمي تتخذ الحوادث بموجبها مجراها المقرر . أما اجزاء التاريخ الظاهرة سواء اكانت «حوادث» أم « أفرادا» فهي تحقق اغراض الروح من غير قصد أو وعي . أضافة لذلك اعتقد هيجل بأن حركة الروح تعبر عن نفسها خلال التاريخ عن طريق صراع الأضداد أو التناقض . إذ إن كل مظاهر الوجود بنظرة تعيش حالة من التناقض الذي هو مصدر كل حياة او حركة . ومن هنا، يغدو الديالكتيك والذي معناه هو الجدل أو المحاورة وتبادل الحجج والجدال بين طرفين دفاعًا عن وجهة نظر معينة، ويكون ذلك تحت لواء المنطق ، والجدل المنطقي الديالكتيكى عند هيجل بمثابة العامل الأساس الذي يكشف عن طبيعة حركة التاريخ والكشف عن تعاقب أحداثه .

لقد أستعان هيجل بالديالكتيك لغرض توفير أداة منطقية تمكنه من الكشف عن ضرورة التاريخ ومع أن فكرة الديالكتيك هذه قديمة ترجع إلى بعض الفلاسفة الإغريق أمثال سقراط وافلاطون وأرسطو. إلا أنه عند هيجل أتخذ شكل القانون الذي يتضمن المعارضة والمواءمة ، ولا ينطبق على عمليات المنطق حسب ، وأنها يتعداها إلى عمليات العالم الطبيعي وعمليات التاريخ البشرية أيضاً. لقد تصور هيجل ان التاريخ او العالم هو في حالة تغير دائم . لكن هذه التغييرات فيها عامل من عوامل التماثل . اذ أن كل تغيير منها يمر من خلال دورة ذات مراحل ثلاث هي : (الفكرة) وهي عملية تأكيد وتوحيد و (النقيض) وهي عملية انفصال عن الفكرة ونفي لها و (المركب) وهي توحيد جديد يوائم بين الفكرة والنقيض . لكن في هذه المراحل ليست مجرد تكرار يترك العالم على الحالة التي كان عليها من قبل بل أن (المركب) في كل دورة من هذه الدورات هو خطوة ارقي في سبيل التقدم عن (الفكرة) لأنه يجمع في توحيد أرقى العناصر في (الفكرة) و(النقيض) . وهنا تغدو العملية التأريخية تسير عن طريق النقائص وعندما يصل كل اتجاه إلى نهايته الكاملة يولد اتجاهاً مضاداً يهدمه وهكذا إلى مالا نهاية .

ومع ذلك لم يعد هيجل التاريخ غامضاً او غير معقول في حقيقته . وانما يكمن فيه شكل من اشكال العقل اعلى من شكل الفهم التحليلي . وحسب قوله : (أن الحقيقي هو العقلي ، والعقلي هو الحقيقي) . لا بل نظر إلى كل فترة من فتراته كلاً لا يتجزأ . وان عملياته واحداثه مترابطة بالرغم من ان لها ظاهراً منطقياً مختلفاً . ومع هذا اعتقد هيجل بأن الضرورة التاريخية نابعة من أن الحقائق والأسباب الفعالة في

التاريخ قوى لا شخصية وعامة وليست اشخاصاً فرديين أو احداثاً فردية . والاخيرة غالبا ما تكون تجسدات جزئية وناقصة لقوى اجتماعية . كما أن الواقعة المفردة تكون في الأغلب ذات قيمة طفيفة للغاية إذا ما قورنت بالعامة .

ومن هنا يظهر ان هيجل نظر إلى التاريخ نظرة تطورية وكل عملية تاريخية هي شيء جديد وليس ثمة شيء مشابه تماماً لأي شيء سابق عليه . بل انه تطور تدريجى تعد كل مرحلة او لحظة حسب تعبير هيجل ، نتيجة لما قبلها ومختلفة أساساً عنها . والتناقض لديه ليس علامة على التخبط العقلي ، وانما دليل على القدرة الابداعية . وكل لحظة تأريخية اذ تقضي على سابقتها ، تقتبس منها في الوقت ذاته ما هو هام فيها ، وتحتفظ بها بوصفها مظهرا لواقع اجتماعي اكثر ثراءً وشمولا . وان كل جيل جديد في نظره ، ان يعد نفسه محطم الحضارة التي ورثها من الجيل السابق عليه ، وكذلك حافظها والناهض بها ، في وقت واحد، خلال التطور الذاتي للروح المطلق .

لقد أراد هيجل وراء فلسفة التأريخية التوصل إلى معيار للقيم من خلال التأريخ، واكتشاف قانون عام او توجيه للنمو الحضاري . ثم النظر إلى التغير التأريخي على أنه صراع مستمر نحو الحرية الروحية للبشر , الا أن تاريخ الحضارة بدا في نظره بمثابة التحقق او التجسد المطرد للروح المطلق من خلال تعبيره في المرحلة المحدد عن ذاته .

أن الفكرة الميتافيزيقية التي هيمنت على هيجل تمثلت بتعبير الروح عن حريتها في حركة التاريخ. فالروح تكشف عن وعيها الذاتي بالحرية في التاريخ . لا بل أن تاريخ العالم يعبر عن تقدم الوعي تجاه الحرية . والحوادث التاريخية المترابطة العاقلة غايتها ان تصل بالإنسان إلى تحقيق حريته . وجرياً على ذلك رأي هيجل أن العالم قد مر بمراحل تاريخية وحضارية متعاقبة . لكنه اعطاها الصبغة السياسية الطاغية عليها. وهذه المراحل حسب اعتقاده هي : (المرحلة الشرقية) ومفهوم الحرية بها كان طفولياً وغامضاً متمثلاً بالاستبداد . أما (المرحلة اليونانية والرومانية) فكانت الحرية خلالها جزئية وعرضية رغم تلون وتعدد انظمتها السياسية , ثم (المرحلة الجرمانية) التي اعتقد هيجل بأن الحرية وصلت فيها إلى مرحلة الوعي والنضج الكامل من خلال مزجها. بين القوانين الدستورية والمباديء المسيحية .ومثلها بـــ الدولة البروسية ، حيث امتلك الفرد ، على حد رأيه الحرية وأخذ يخط وحدة تأريخ العالم . وكلما انتهت هذه المرحلة عادت في نفسها من جديد .

وقد أرتبط الشكل الأيجابي للحركة كما تصورها هيجل بمفهوم الدولة لديه . أذ أن قيام الدولة برأيه أمر عقلي في ذاته ولذاته . فهي تعبر عن إرادة الروح وتجسدها في التاريخ في صورة واقعية . وأنه ليس للأفراد من سلطان عليها لأنها تنتمي إلى عالم الروح . كما تمثل الوحدة بين الذاتي والموضوعي .